الأستاذ

# مصعب بن عمير

رضي الله عنه

ربما يصنع الشباب أكثر مما نتوقع
فقط لو أتيحت لهم الفرصة

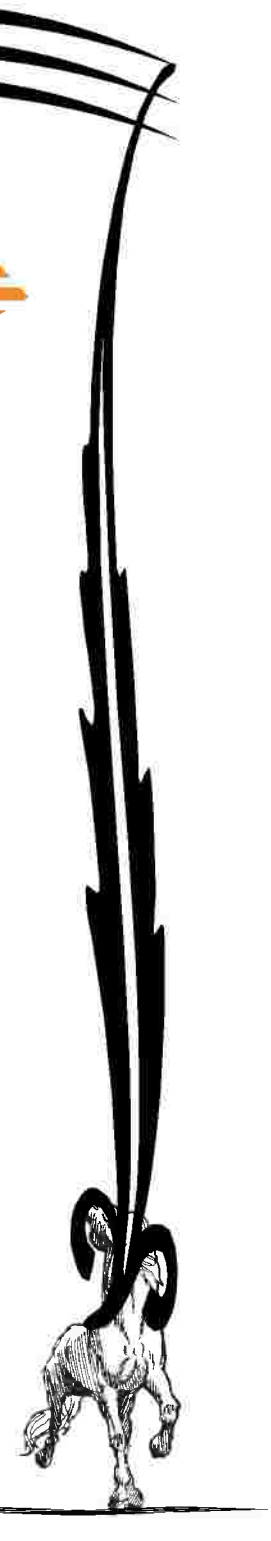

«ألا تأتي معنا يا مصعب؟ ».

هتف بها أحد الشباب الذي كان يسير مع أقرانه في إحدى طرقات مكة، والـذين مـا إن لمحـوا «مصعبا»حتى وقفوا يدعونه إلى وجهتهم، وهنا التفت إليهم مصعب متسائلا:

- « إلى أين ؟».

رد عليه الشاب وهو يبتسم في خبث:

- «نقضي وقتا ممتعا ».

كانت إشارات الشاب تكاد تنطق أنهم ذاهبون إلى مكان لا يناسب أخلاق مصعب، والذي مـا لبث أن اعتذر إليهم مكملا سيره..

وبعد قليل.. يظهر لمصعب مجموعة أخرى من الشباب، بدا مما يحملـوه أنهـم ذاهبـون في رحلـة صيد، فيدعونه إلى مرافقتهم، إلا إنه يعتذر إليهم أيضا لعدم رغبته في الصيد في ذلك الوقت..

كانت المواقف تدفع الشاب «مصعب» الذي بلغ مـن العمـر تـسعة عـشر عامـا، إلى وجهـة لا يعرفها..

كانت مكانة مصعب الاجتماعية وأخلاقه وشهرته بالثراء بين شباب مكة، تجذب إليه أقرانه من الشباب، فيرغبون دائما في وجوده معهم، إلا أن القدر كان يرتب لمـصعب وجهـة أخـرى لم تكـن في حسبانه ..

لكنه ربما كان يشعر بها من داخله..

وربما كانت تلح عليه من آن لآخر..

فمنذ أكثر من ثلاث سنوات، سمع عنه..

سمع عن دعوته وأخلاقه وتاريخه في مكة..

بعدها سمع عن معاناته ومعاداة قريش له..

وبين الحين والآخر.. يسمع عن أعداد تنضم إلى دعوته، وشخصيات لها ثقلها تؤمن به..

سمع كثيرا عن محمد ﷺ، ولكنه لم يكن قد فكر في اتخاذ القرار بعد..

إلا أن ما سيحدث بعد قليل، سيدفعه دفعا إلى التفكير..

مجموعة من رجال قريش، ارتفع صوتهم بالحديث عن محمد ودعوته، وما إن يـراهم مـصعب، حتى ينضم إليهم، ويستمع إلى نقاشهم..

وبعدها..عرف مصعب إلى أين يتجه.. بعد أن نجح أخيرا في اتخاذ القرار..

القرار الصعب.

* * *

كانت دار الأرقم هي المكان الذي شهد إسلام مصعب بن عمير..

وكانت هي المكان الذي شعر فيه مصعب بطعم آخر للحياة، ونظرة أخرى للدنيا من حوله..

لم تصبح الحياة الآن عيشة هنيئة وطلبات مجابة وترفيها بلا حدود..

لقد أصبحت الحياة الآن أفكارا ومبادئ، سيدافع عنها مصعب هو وإخوانه..

وكان هذا يتطلب أن يضاف عنصر جديد إلى حياة مصعب لم يتعود عليه بعد..

اسمه القلق..

القلق من أن يكشف أحد أمر إسلامه..

وتمر الأيام..وتكثر لقاءات مصعب مع النبى ﷺ وأصحابه، يبرز فيها حرص مصعب على الصلاة وجمع المعلومات وحفظ ما ينزل من القرآن، حتى استطاع أن يشد انتباه الرسول ﷺ إلى قدراته في تحصيل العلم وطريقته في عرض الأفكار..

وتمر الأيام.. ومصعب يعيش في عالم آخر..عالم جديد لم يكن ليعرفه إلابدخول ذلك الإيمان إلى قلبه..

ومع الأيام.. تدخل الطمأنينة قلبه، ليعرف أن هناك لونا آخر من السعادة لا يعرفه إلا مصعب وأصحابه، وتقل حدة القلق كثيرا، بعد أن شعر أن أمر إسلامه قد أصبح سرا بعيدا عن الاكتشاف...

إلا أن «مصعبا» لم يكن يدرك أن هناك من يراقبه منذ زمن ..

وأن الأمور سوف تنقلب.. رأسا على عقب.

* * *

«هل لديك الجديد من العطور ؟».

نطق بها الشاب الأنيق «مصعب » بابتسامة تملأ وجهه كله أمام صاحب أفخر محال العطور في مكة..الذي ما لبث أن رحب به بحفاوة بالغة قائلا وهو يشد على يديه بابتسامة عريضة لا تخرج إلا لكبار العملاء:

– دائما لدينا الجديد يا سيدي..ولدينا فقط.

ثم أشار إلى أحد عماله الذي هرول إليه قائلا:

– اذهب وأحضر مجموعة العطور الفارسية والرومية التي وردت لنا بالأمس، وتابع في شدة:

– بسرعة.

قال العامل وهو ينحني انحناءة استجابة للأمر:

- أمرك سيدي.

التفت التاجر لمصعب وقد أكسبه عمله بالتجارة فراسة نادرة وهو يقول:

- أنا أوليك عناية خاصة، ولكني هذه الأيام بالذات أوليك عناية مضاعفة.

قال مصعب بعد أن تملكته ثوان من التفكير:

- هذه الأيام بالذات.. ولماذا هذه الأيام بالذات؟

قال التاجر:

- كل عميل لدي له سمته الخاص الذي أعرفه جيدا..وأي تغير عليه لابد أن ألحظه.

قال مصعب وهو لا يزال تسيطر عليه حالة من التفكير:

- وما الذي طرأ علي مجددا يا ترى؟..

- العطور سيدي.

نطق بها العامل وهو يضعها أمام التاجر الذي ما لبث أن عرضها على مصعب في حرفية بالغة، جعلته ينجح في أن يبيع له ثلاثة من أغلى أنواع العطور، دفع ثمنها دون مناقشة، شاكرا التاجر، منصرفا بعدها بطريقة بدا وكأنه يريد التخلص بها من هذا الموقف.

وسار مصعب في الطريق إلى منزله وهو يشعر أن التاجر يلاحقه بنظراته، وقد تملكته حالة من الحيرة والتفكير جعلته لا يشعر بالطريق.

ماذا كان يقصد هذا التاجر بهذه الأيام بالذات، وما هوالتغير الذي طرأ على ليلاحظه التاجر بهذه السهولة... يا لله..أيكون قد سمع شيئا عما حدث؟..أيكون قد انكشف سري؟ وبهذه السرعة؟ رغم كل ما اتخذته من إجراءات احتياطية؟ أم أن ما قاله الرجل كان شيئا عابرا لا يستحق كل هذا الاهتمام وهذه الحيرة؟..نعم..إنها مجرد جملة حاول بها التاجر أن يشعرني باهتمامه كحيلة كل التجار لجذب عملائهم إليهم.

ثم أخذ نفسا عميقا وكأنه قد فك قيدا كان على رقبته قائلا:

نعم..هكذا الأمر ولا شيء غيره.. على أن أنسى الموقف تماما، ولا أهتز بهذه الصورة أمام كلمة من هذا أو تلميح من ذاك، واحذر أن يظهر عليك شيء أمام أمك، فمكة كلها لا يهمك أمرها مثلها.

وما إن كاد ينهى مصعب حواره مع نفسه، ويرسم ملامح مطمئنة على وجهه، حتى وصل إلى باب منزله الفاخر، الذي طرقه قبل أن يسمع صوت الخادمة:

- من بالباب؟

- مصعب.

دخل مصعب ليجد مشهدا غريبا لم يعتده إلا في أوقات الشدائد والأزمات، فقد وجد في حجرة الاستقبال أعمامه وأخواله ينظرون إليه نظرة ملؤها الدهشة واللوم، إلا أن نظراتهم جميعا لم تكن لتخيفه مثلما أخافته نظرة أمه (خناس بنت مالك ).

فلقد كانت نظرة حادة وقاسية.. فهم منها مصعب أن أمره قد انكشف..لا محالة.

لقد بدأت رحلة الصراع..الذي حاول مصعب أن يتفاداه..

إلا أنه بدأ رغما عنه.

وبلا رجعة.

* * *

«أين كنت يا مصعب؟».

نطقت بها أم مصعب في عصبية بالغة، والشرر يكاد يتطاير من عينيها التي أخذتا تحدق في عيني مصعب، والذي فاجأه السؤال بصورة جعلته يجيب في تردد:

– أي شيء حدث يا أماه؟ كنت أشتري بعض زجاجات العطر كعادتي..

وتابع وقد بدا أنه يحاول أن يخفي شيئا:

– وها هي في يدي.. ألا ترينها؟!

قالت الأم بدهاء يعرفه مصعب جيدا:

– أراها بالطبع، ولكني أرى أن الوقت الذي استغرقته بالخارج، كان أكبر بكثير من مجرد شراء بعض زجاجات العطر.

ابتسم مصعب وهو يحاول أن يدفع عن نفسه تهمة لم يتهمه بها أحد بعد قائلا:

– بالفعل يا أماه...فلقد كنت أجلس مع أصدقائي كما اعتدت، ولقد أخذنا الحديث بعض الوقت.

قالت الأم في سخرية:

– أعتقد أن محمدا أكبر منك سنا بكثير كي يكون من أصدقائك..أليس كذلك؟!

اضطرب مصعب وهو يقول:

– محمد.. من محمد؟

قالت الأم في تحد:

– محمد الذي جعلك تكذب على أمك..وهو ما لم تفعله في حياتك.

ازداد اضطراب مصعب وهو يقول:

- أنا لم أكذب عليك يا أماه...أنا بالفعل كنت...

قاطعته أمه وقد ارتفع صوتها فجأة وهي تقذف بالكلمات في وجه مصعب قائلة:

- كنت مع محمد ورجاله ممن اتبعوه في دار الأرقم، جاءني عثمان بن طلحة بالأمس وأخبرني أنه رآك وأنت ترتاد ذلك المكان لتحضر اجتماعات محمد، ليس هذا فقط بل رآك وأنت تصلي صلاة محمد...

عندها هب أحد أعمامه ثائرا في وجهه:

- أي جنون أصابك يا ولد ؟!

واندفع بعدها خاله يلومه ويوبخه..

واندفع الجميع يحاصرونه ويضغطون عليه ضغطا هائلا لم يعتده أبدا في حياته، وهو الشاب المرفه المدلل المنعم المطاع، الذي طالما عاش حياة هانئة هادئة مستكينة مطمئنة...

«كفى..».

انفجر بها مصعب في تحد واضح ليضع نهاية لهذا الموقف السخيف، وتابع:

- نعم أسلمت..آمنت بمحمد، سمعت ما قال وفكرت واقتنعت، وأجد نفسي سعيدا بما فعلت، مرتاحا لما أقدمت عليه من قرار، أدرك تماما مدى صعوبته وخطورته، ولست متعجبا من موقفكم الآن؛ لأنكم لم تسمعوا ما سمعت من محمد، ولم تشعروا بما شعرت و....

وبدأ مصعب يتلو بعض آيات من القرآن الكريم، لعل القلوب ترق أو تفهم العقول أو تصمت الألسنة...

وكان ما تلاه مصعب- بلا شك- شيئا جديدا مؤثرا بل مبهرا، ولربما تأثر به البعض، ولكن..

إنها أمه..ذات الشخصية القوية المهابة.. لم تتأثر..ولم يرق قلبها حتى على ابنها.

بل وأصرت على معاقبته وإيذائه..

نعم..إيذائه..ستحرمه من النعيم الذي اعتاد عليه طوال حياته..

ستمنع عنه رفاهية، طالما حسده عليها كل أهل مكة..

ستحبسه في غرفة في أقصى الدار..وستضع عليه حراسة مشددة..لا شك أنه لن يتحمل، فمن ذاق النعيم طيلة حياته، من الصعب عليه بل من المستحيل، أن يتحمل أسبوعا من التقشف، ودع محمد ينفعه..

هكذا قالت أمه لنفسها..وهكذا راهنت على قدرة مصعب (المدلل ) على تحمل شظف العيش..

بالتأكيد أخطأت أم مصعب تقديراتها..ولها العذر في ذلك، فهي لم تعرف الإسلام من قبل ولم تذق طعم الإيمان أبدا..

إنها لم تعرف ماذا يفعل الإيمان بالنفوس، وكيف يغير الطباع ويقوي الإرادة ويشحذ العزيمة وينمي الإصرار ويصنع التحدي..

لها العذر في ذلك، فهي لم تعرف الحقيقة التي أدركها مصعب ورفاقه، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وحقيقة الحياة..

لكنها مع الوقت بدأت تدرك..

لن يستسلم مصعب كما توقعت، ولن ينهار كما راهنت، بل اشتد عوده وقويت شكيمته وتطلع إلى تحد أكبر وأكبر..

إنها الهجرة...

نعم.. الهجرة إلى الحبشة..

* * *

في العام الخامس من النبوة، نجح أحد الصحابة في أن يخبر «مصعبا » بأن الرسول ﷺ قد أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، بعد أن اشتد الإيذاء بصورة لا تحتمل، وأنه قد اختار «مصعبا» من بين ثمانية عشر رجلا وامرأة، سيهاجرون إلى الحبشة.

ولم يكن لمصعب (الجديد) أن يتأخر، أو يتوانى عن أمر رسول الله ﷺ...

ولكن.. كيف له أن يفلت من هذا الحصار الرهيب ؟.. كيف يغافل الحراس ويتسلل خارج المنزل ليلحق بالمهاجرين؟

فكر مصعب كثيرا.. ودعا الله أن يهديه لخير حيلة..

وهداه الله للحيلة وغافل حارسيه، ونجح في التسلل خارج المنزل، والتقى بأصحابه الذين كانوا على موعد مع الهجرة إلى الحبشة،حيث النجاشي العادل.

وكم كانت الرحلة طويلة وشاقة..

وكم كان الأمر لا يخلو من الخطورة والمغامرة.

ففي كل لحظة كان مصعب مهددا بالقبض عليه.

لكن «مصعبا» كان محتاطا لذلك.. كما كان مصمما على إتمام الرحلة الشاقة، حتى ولو كانت سفرا طويلا من قارة آسيا إلى جنوب قارة أفريقيا.

لم يشغل باله عظم الجهد والمشقة..كان الذي يشغله أمرا واحدا فقط.. كيف ينفذ أمر حبيبه رسول الله ﷺ؟..كيف ينجح في المهمة ليرضي رسول الله ﷺ ؟

وعن طريق البحر الأحمر ومن ميناء جدة، وبسفينتين كان من السهل أن يجدهما المهاجرون، لوجود حركة تجارية نشطة بين مكة والحبشة، وصلوا سالمين قبل أن ترصدهم أعين قريش.

لكن شائعة انتشرت بينهم -وهم على أرض الحبشة- جعلتهم يقررون العودة..

(لقد أسلمت قريش)

يا لله..أسلمت قريش ؟!!..كان الخبر مفرحا إلى الدرجة التي لم تجعلهم ينتظرون أمر الرسول ﷺ بالعودة..

فعادوا دون تفكير ودون أمر.

وعاد مصعب وأصحابه إلى مكة.. ففوجئوا بذهول الرسول ﷺ والصحابة.. وتيقنوا أن الخبر لم يكن أكثر من شائعة، كانت كافية تماما لإيقاعهم فريسة لقريش..

إلا أنه بعد زمن قصير.. يأمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وبعدد أكثر من خمسة أضعاف العدد الأول.

ويعود مصعب إلى الحبشة مرة أخرى..

هجرة مرة أخرى.. ومشقة مرة أخرى.. وجهاد مرة أخرى.

ولم لا ؟!

وهو مصعب الجديد..الذي غيره الإيمان، فجعل رفاهيته أن يتحمل المشقة في سبيل الله، وجعل راحته أن يبذل الجهد في سبيل الله، وجعل عزه في أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ.

لقد تغير مصعب كثيرا..تغيرا أذهل الصحابة عندما دخل عليهم وهم يجلسون حول رسول الله ﷺ في أحد دروس العلم في دار الأرقم، وهو يرتدى جلبابا باليا مرقعا، فما أن رأوه حتى حنى البعض رأسه، وغض البعض الآخر بصره، وزاد التأثر بآخرين فبكوا.. وذرفت الدموع من عيونهم..ودارت الأفكار في رؤوسهم.

وينظر الرسول ﷺ إليه في إشفاق قائلا في حنان:

«لقد رأيت الناس بمكة، وما فيهم أحسن لمة ولا أنعم نعمة، من مصعب بن عمير».

أهذا هو مصعب الذي كان يرتدي أفخر الثياب؟! أهذا هو مصعب الذي كان يغير ثوبه في اليوم مرتين أو ثلاثا؟!

لقد تنازل مصعب عن نعيم الدنيا من أجل الآخرة.. تنازلا لا رجعة فيه.. واختار اختيارا لابديل عنه..الآخرة خير وأبقى.

وبنفس الإصرار الذي واجه به ثورة أمه في الماضى، واجهها مرة أخرى حين دعته ثانية لترك دينه، وإلا عاودت حبسه مرة أخرى. فأظهر إصرارا وتحديا فاجأ به أمه، إلى حد التهديد بإيذاء كل من ستستعين بهم على حبسه.

ورغم كل القسوة التي واجهته بها أمه.. كان هو حانيا عليها رحيما بها، وظل يدعوها قبل أن

يغادرها إلى دين الله..

«يا أماه..إني لك ناصح وعليك شفوق».

ولكن قسوة أمه كانت أشد من رحمة ابنها وخوفه عليها..

وودعها باكيا..وودعته باكية..في لحظات ظلت شاهدة على موقفين متناقضين..

إصرار على الكفر..وإصرار على الإيمان.

وإلى جانب شخصية مصعب المضحى المجاهد، كانت قد أثرت تربية والديه فيه؛ فأصبح ذا ذكاء ولباقة وحسن خلق، وهو ما شجع الرسول ﷺ لكى يختاره داعية للإسلام في المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، وفضله بذلك على من هم أكبر منه سنا وأكثر وجاهة.

وهناك..

أثبت مصعب كفاءته وقدرته وعبقريته الدعوية الفائقة..

والنادرة.

* * *

يمكن القول: إن العام الحادي عشر من البعثة، هوالعام الذي خرجت فيه الدعوة من عنق الزجاجة، بعد محنة المقاطعة القاسية التى عانى منها المسلمون ثلاث سنوات كاملة في شعب بني هاشم، وبعد رفض كل قبائل العرب حماية الدعوة..

إلا أن الستة الذين أسلموا في موسم الحج في السنة الحادية عشرة، كانوا هم بارقة الأمل الوحيدة في كل هذا الظلام، وكان عهد الستة مع الرسول ﷺ، أن يبدؤوا الدعوة في المدينة بمجرد وصولهم، على أن يتقابلوا بعد عام..

ووفى الستة عهدهم، ليعودوا إلى الرسول وقد بلغ عددهم اثنا عشر رجلا، يبايعون الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى..

وعندها.. بدأت المهمة..

مهمة الدعوة في المدينة.. وإرشاد المجموعة المسلمة، واتخاذها نقطة انطلاق قوية للدعوة..

كانت المهمة تتطلب سفيرا فوق العادة..

رجل لديه حصيلة علمية جيدة، قادر على الحوار والإقناع، شخصية من السهل قبولها، وتجيد التعامل مع فئات الناس المختلفة، شخصية تعودت على الغربة والعيش وسط الغرباء، شخصية قادرة على الدعوة في ظل توتر الموقف بين الأوس والخزرج بعد، في نفس الوقت، الذي يستطيع فيه أن يأخذ حذره من يهود المدينة..

وربما كانت المراسلات بين الرسول ﷺ وجعفر بن أبي طالب أمير المسلمين في الحبشة قد

استقرت على اختيار واحد..

مصعب بن عمير..

ويأمر الرسول ﷺ باستدعاء مصعب من الحبشة..

وفور مجيء مصعب.. تطول الحوارات بينه وبين الرسول ﷺ عن طبيعة مهمته..

الهدف.. هو تعليم المسلمين مبادئ دينهم ونشر الأخلاق، وتوضيح صورة الإسلام الجميلة عند أهل المدينة، وجمع الناس على كلمة واحدة، والبعد عن الطائفية.

ويستوعب مصعب التعليمات جيدا.. ليبدأ رحلته الجديدة مع اثني عشر رجلا بايعوا النبي ﷺ عند العقبة، و عزموا على أن يبدؤوا مشوارهم مع قائدهم الشاب..

مصعب بن عمير..

أول مهاجر إلى المدينة.

* * *

رغم أن مصعبا كان لا يزال في العام الثامن والعشرين حين هاجر إلى المدينة، إلا أنه أثبت براعة نادرة في الدعوة، بعد أن اتخذ من منزل أسعد بن زرارة -أول من أسلم من الأنصار- دارا للاجتماعات في المدينة وعقد الدروس الدينية واستقبال كل من يريد أن يتعرف على الإسلام في المدينة ..

وعندما تبدأ دعوة جديدة في مكان، يمهلها السادة إلى أن تثبت نجاحا ملحوظا..أو بالأحرى.. نجاحا مقلقا ..

وهو ما حدث بالفعل مع سادة بنى عبد الأشهل..سعد بن معاذ وأسيد بن حضير.. واللذان أصابهما القلق من ازدياد شعبية مصعب بين أهل المدينة بدعوته الجديدة، ليبدأ سعد بن معاذ في شحن أسيد بن حضير ضد مصعب؛ والذي ما لبث أن حمل حربته في عنف، وانطلق بها في غضب إلى منزل أسعد بن زرارة..

وما إن رأى أسعد بن زرارة «أسيدا» قادما، حتى مال على مصعب قائلا في اهتمام:

«جاءك سيد القوم، فأخلص الله فيه ».

«ما جاء بكما إلى حينا تسفهان ضعفاءنا.. اعتزلانا إن كنتما لا تريدان الخروج من الحياة ».

صرخ بها ( أسيد بن حضير ) سيد قبيلة بنى عبد الأشهل في المدينة.. في غضب وثورة.. وهو يشهر حربته في وجه مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، عندما كانا يقفان مع أناس يدعوهم مصعب إلى الإسلام.

وما إن رأى الناس الموقف، حتى فزعوا وشعروا أن معركة ستحدث حتما.

وعلى عكس المتوقع تماما، قابل مصعب ثورة أسيد بهدوء شديد وابتسامة واثقة وحكمة بالغة قائلا لأسيد:

- أوتجلس فتستمع ؟ فإن رضيت أمرنا قبلته..وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

لعبت خبرة مصعب دورا كبيرا في التعامل مع الموقف ، وهو ما هيأه ليحدث كل شخص حسب تفكيره وثقافته ومكانته بين أهله.

كان الرد حكيما إلى أبعد حد..وفيه مغامرة إلى أبعد حد..

حكيما.. لأنه عرض عرضا لا يرفضه عاقل كأسيد، فما الضرر أن يستمع، فإن اقتنع تركه وإن لم يقتنع ترك مصعب الحي والعشيرة إلى حي آخر وعشيرة أخرى.

ومغامرة.. لأن عدم اقتناع أسيد بدعوة مصعب –وهو احتمال وارد بالطبع – سيجعله يخسر دعوته في حي كامل.

ولربما يأخذ الخبث أسيدا، فيصر على عدم اقتناعه بما يقول مصعب –حتى وإن اقتنع- ويصبح لزاما عليه الرحيل.

إلا أنه يبدو أن الإخلاص والحكمة وفن العرض والحوار، انتصروا لمصعب.. ولدعوة مصعب.

واختتم مصعب حديثه بآيات من القرآن، أخذت تغير ملامح أسيد بصورة جعلت كل من في المكان يدرك أن «مصعبا » قد نجح..

نجاحا باهرا ..

وبالفعل..

فما أن انتهى مصعب من حديثه حتى قال له أسيد:

- ما أحسن هذا القول وأصدقه.. كيف يصنع من يدخل في هذا الدين ؟

قال له مصعب:

- يطهر ثوبه وبدنه، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وبلغت الحماسة بأسيد أن جعلته غاب عنهم دقائق، ثم عاد إلى مصعب ومن معه، يقطر الماء من شعر رأسه، ويعلن أمام الجميع أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

أرأيت كم كان الرسول ﷺ موفقا في اختياره؟ لقد كسب مصعب الجولة، ثم تبعتها جولات..

ولم تمر ساعة واحدة.. حتى استطاع أسيد بن حضير- بحيلة ذكية - أن يدخل صديقه سعد بن معاذ الإسلام!! وبعدها.. أقبل أهل المدينة يتساءلون:

إذا كان أسيد بن حضير وسعد بن معاذ أسلما..فلم لا نسلم إذن؟!

هيا بنا إلى مصعب...

لقد نجح السفير نجاحا منقطع النظير..نجاحا يستحقه مصعب ويستحقه الإسلام ويستحقه

أهل المدينة، وينجح مصعب تماما في تمهيد المدينة لهجرة الرسول ﷺ، وبداية تحقيق الحلم بإقامة الدولة الإسلامية هناك..

وبعد الهجرة بعامين.. يختار الرسول ﷺ «مصعبا» لمهمة أخرى، ليكتب معها المشهد الأخير في حياة مصعب..

في غزوة أحد.

* * *

«أنت الذي ستحمل الراية يا مصعب».

نعم.. لقد اختار الرسول ﷺ «مصعبا» لحمل راية الإسلام.. لقد أصبح داعية المدينة بالأمس، حاملا راية الإسلام، محاربا في أحد اليوم.

وتشتد المعركة..

وينتصر المسلمون في بادئ الأمر، ويغري النصر طائفة الرماة فيتركوا أماكنهم على جبل أحد ليحصدوا الغنائم..وينكشف ظهر المسلمين.

ويفاجأ المسلمون بفرقة الداهية خالد بن الوليد، تنزل عليهم من أعلى الجبل، فتثير الذعر والفوضى بين صفوفهم.

وينظر مصعب.. فيجد الأمور قد انقلبت انقلابا رهيبا لا يصدقه عقل.

الهجوم شرس وقوي، والذعر يضرب النفوس في مقتل، وأصحاب رسول الله ﷺ يتساقطون أمام عينيه..

والخطر يقترب ويقترب إلى أعز الناس وأحب الناس إلى قلبه..

إلى الرسول ﷺ..

لقد أصبح الرسول ﷺ مهددا..فالكل يبحث عنه ليقتله..

وأدرك مصعب الموقف، فحمل الراية عالية وأخذ يزأر كالأسد بالتكبير ليرفع الروح المعنوية للمسلمين، وأخذ يقاتل وحده بشراسة كأنه جيش كل همه أن يصرف النظر عن رسول الله ﷺ..

كان هدفه أن يخرج الرسول ﷺ سالما، حتى لوأصابه ما أصابه..

ولقد أصاب مصعبا الكثير والكثير..

وفي أصعب أوقات المعركة، وقف الرسول ﷺ وحوله تسعة من الصحابة يدفعون عنه الأذى من كل اتجاه .. لكن الهجوم العنيف عليهم، يتسبب في مقتل ستة منهم بينما يسقط السابع جريحا، فلم يبق منهم إلا سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

وينادي الرسول ﷺ على المسلمين، ليبدؤوا في التجمع من حوله من جديد.

ويتجه ابن قمئة بقوة بسيفه إلى مكان الرسول ﷺ، فيجد أمامه مصعب بن عمير، فيظنه الرسول ﷺ.. لأنه الذي يحمل الراية، وللشبه الكبير بينه وبين رسول الله ﷺ، وبكل ما أوتي من

قوة، ينزل ابن قمئة على يد مصعب اليمنى بسيفه فيقطعها، ويتحامل مصعب على نفسه ليحمل الراية بيسراه، فيضربها ابن قمئة فتقطع، وببطولة أسطورية يتدلى مصعب والدماء تنزف على جانبيه، ليمسك الراية بعضديه ..فيضربه ابن قمئة في صدره.. ويظن أنه قد نال من رسول الله ﷺ، فيجري ليهتف بأعلى صوته: قتل محمد..قتل محمد. ليخف هجوم المشركين بعدها كثيرا عن الرسول ﷺ.

ويقع مصعب بن عمير..وتقع الراية..

قبل أن تتوقف آخر كلماته..

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ظل يرددها مع كل ضربة يتلقاها..وظل المسلمون يرددونها وسيظلون إلى قيام الساعة..

فلقد نزل بها الوحي، ليكملها قرآنا يتلى إلى يوم الدين.

وانتهت المعركة..ليقف رسول الله ﷺ أمام جثة مصعب وقد غطى وجهه الجميل التراب، وكأنه خاف أن يرى الرسول ﷺ وقد أصابه سوء وهو جثة هامدة..

أو أنه قد خجل أنه قد قتل قبل أن يطمئن على رسول الله ﷺ..

ووقف الرسول ﷺ على جثة مصعب..

وذرفت الدموع من عيني الحبيب وهو يقول:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم ألقى نظرة على بردته التي كفن بها وقد كانت قصيرة لا تستر جسده كله وقال:

«لقد رأيتك بمكة، وما بها أرق حلة، ولا أحسن لمة منك. ثم ها أنت شعث الرأس في بردة»..!

بعدها.. نظر الرسول الكريم ﷺ نظرة واسعة حانية إلى أرض المعركة قائلا:

«إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة».

ثم أقبل على أصحابه من حوله وقال:

«أيها الناس.. زوروهم وأتوهم، وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده، لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة، إلا ردوا عليه السلام»..

تعالوا نسلم على حبيبنا مصعب ليرد علينا السلام..

السلام عليك يا مصعب..

السلام عليك يا سفير الإسلام.. يا شهيد أحد..

يا فاتح المدينة..

السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

* * *

# تحليل ودروس

**١ – الصراع بين الملتزم ومن حوله ( وقوع الخلاف بين مصعب وأمه بعد إسلامه )**

في بداية الالتزام..عادة ما ينشأ صراع بين الملتزم ومن حوله نتيجة لتغير الأفكار والعادات لدى الشخص الملتزم، وهذا الصراع يبدأ بالأسرة ثم الأصدقاء ثم تتسع الدائرة لتصل إلى المجتمع كله، وسبب هذا الصراع يختلف من حالة إلى أخرى على النحوالتالي:

أ– قد يكون نتيجة لقيام الشخص الملتزم بأفعال مستفزة –حتى وإن كانت صحيحة– مثل إغلاق التليفزيون على فيلم يراه غير مستحسن مشاهدته، أو تعنيف أخ له نتيجة لعدم صلاته في المسجد، أو نقد الأب نتيجة لارتكاب خطأ في صلاته أو تدخينه السجائر، ونحن لا نعترض على الدعوة من أجل التغيير داخل المنزل، ولكن التغيير المفاجئ دون تمهيد مدروس، هوالذي يسبب الصدام والفشل.

ب– قد تمرر الأسرة الموقف، ولكنها تبدأ في الاعتراض نتيجة لملاحظة ظهور سلبيات على الشخص الملتزم بعد التزامه، مثل التأخر الدراسى أوالانعزال عن الأسرة والأقارب والجيران، أو اتهام الناس بتهم صادمة مثل الفسوق والكفر، أوالانغماس في العبادة بصورة يهمل معها مصالحه ومصالح أسرته.

جـ– الحديث في الأمور السياسية كثيرا بالمنزل، مما يزرع الخوف في قلب الأب والأم ويجعلهما يشعران باستمرار أن الابن قد أصبح معرضا للخطر بنتيجة التزامه.

د– غالبا ما يواجه الشخص الملتزم بالسخرية من أصدقائه، وكلما شعروا بالضعف من ناحيته زادوا من سخريتهم له، ولا حل لهذه المشكلة إلا بقوة شخصية الملتزم أمام أصدقائه، وثقته في نفسه ودفاعه عن تدينه بعزة ولطف دون صدام.

**٢ – التعامل مع الأبناء في مرحلة المراهقة بالقهر وإصدار الأوامر، أسلوب فاشل في التربية، ويؤدي إلى تأثيرات عكسية ( أم مصعب «الخناس بنت مالك» تتبع أسلوب القهر مع مصعب بعد علمها بإسلامه، فيعاندها ).**

لم تفلح أم مصعب ( الخناس بنت مالك ) في التفاهم مع مصعب بعد اكتشافها إسلامه، رغم شخصيتها القوية، وكانت النتيجة هى الصدام والعناد، والسبب في ذلك: أنها اتخذت أسلوب القهر وإصدار الأوامر مع ابنها الذي كان يمر بنهاية مرحلة المراهقة آنذاك، وهى المرحلة التى تتميز بالرغبة في إثبات الرجولة واستقلالية الرأي ومحاولة التخلص من سلطة الأبوين، وهى خصائص لا يمكن التعامل معها بالأوامر ورفع الصوت، ولا حل لها إلا بالصداقة والتفاهم والحوار، والتوجيه المستمر القائم على احترام وجهة نظر الابن واحترام مشاعره، واستيعاب أفكاره وإن كانت خاطئة، والتعامل معها بحكمة تنمي فيه الشعور بالمسئولية وكيفية التفكير واتخاذ القرار.

وهذا كله هو عكس ما يقوم بـه الآبـاء في تربيـة أبنـائهم في مرحلـة المراهقـة !! وهـى المرحلـة الأخطر في حياة الأبناء، وأخطر منها.. أن الآباء لا يدركون ذلك، ومنهم من لا يعرف عـن مرحلـة المراهقة إلا اسمها، وأنها مرحلة تتميز بميل المراهق إلى الجنس الآخـر، ثـم يختـار الوسـيلة الأسـهل والأكثر راحة في التربية، وهي الأوامر وعدم النقاش ورفع الصوت.

إن هذه الطريقة مدمرة في التربية، فهى تورث العناد وتبنى الأسوار العالية بين الابن ووالديـه، وليس أدل على ذلك من سلوك المراهقين بلجوئهم إلى الانفصال -النفسى والتربوي- شبه التام عن الأسرة، ليبدأ في نسج علاقات خارجية تفهمه وتتفاهم معه، والنتيجة: مزيد من الأخطاء والمشاكل.

ليس معنى هذا أن نترك الأبناء ليفعلوا ما يريدون، ولكننا نريد فقـط أن نزيـد مـساحة الحـوار والتفاهم والصداقة بين الآباء والأبناء في هذه المرحلة، وأن نحترم مشاعرهم، وأن نحـاول أن نفهـم وجهة نظرهم، ونعلمهم أن يتحملوا مسئولية اتخاذهم القرار في مشاكل الحياة اليوميـة، وأن نحـاول الاتفاق معا على قواعد الاختلاف والاحترام المتبادل.

بلا شك هذه أمور صعبة ليس من السهل تنفيـذها، ولكـن مـن قـال: إن التربيـة سـهلة؟ إنهـا مسئولية ورسالة وأمانة، وإذا أردنا أن نصنع أجيالا ناجحة، فمن الطبيعي أن نأخذ بأسباب ذلك.

وإذا لم يأخذ الشخص بأسباب النجاح، فمن الغريب أن يتوقع شيئا غير الفشل!

**٣- الأغنياء يلتزمون أيضا ( مصعب كان مرفها وأسلم ، رغم علمه بأن حياته المرفهة سـتكون هي الثمن ).**

ليس صحيحا أن الأغنياء والمترفين فرصـتهم في الالتـزام ضـعيفة، وأن الفقـراء هـم الأقـرب للالتزام، بحكم أن وسائل المعصية ميسرة لهم أكثر من غيرهم، فالتربية وصفات المدعو والاسـتعداد النفسى والأسلوب الذي يدعى به، كل هذه الأمور هى الفيصل ولا شيء آخر.. و ليس صـحيحا أن الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ هم الفقراء فقط.. فالعديد من أوائل المسلمين كانوا أغنياء: مثل أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان ومصعب بن عمير وسلمان الفارسي وغيرهم.

**٤- الثبات على المبدأ والدفاع عن التـدين ( مـصعب يـدافع عـن موقفـه رغـم الـضغوط التـي تمارسها عليه أمه ).**

في بداية الالتزام – وعلى عكس المتوقع – تواجه الملتزم حديثا صعوبات شـتى تـضايقه وتقلقـه وربما تسبب له آلاما نفسية، وهذا أمر طبيعى؛ لأن الملتزم حديثا كمن يولد من جديد ، يبدأ في النظـر إلى من حوله برؤية مختلفة ، ويبدأ المجتمع من حوله يراه بصورة جديدة، ولابد من فترة انتقالية يجب أن يديرها الملتزم بحكمة وعقلانية، حتى يتقبـل هوالـصورة الجديـدة للآخـرين ويقتنـع الآخـرون بالتزامه، وإلى أن يحدث ذلك.. ستحدث مشاكل، ويواجه الملتزم صعوبات عليه أن يتحملهـا بـصبر وشجاعة واستعانة بالله، ولا ينهزم أمام رياح النقد والسخرية.

**٥- قدرة الإيمان على تغيير النفوس وتحمل المشاق ( إيمان مصعب يجعله يتنازل عن عيشته المرفهة، ويتحمل مشقة الحبس في سبيل الله ).**

الإيمان له قدرة غريبة على تغيير النفس، مهما اعتقدنا في بشاعة صاحبها، ومهما كان اقتناعنا أنه أبعد ما يكون عن الالتزام، ولكن التاريخ يشهد أن الإيمان خيب كل الظنون، وأفسد كل التوقعات بشأن أناس كانوا آخر من يتوقع إسلامهم أوالتزامهم، ففى عهد الرسول ﷺ أسلم عمر بن الخطاب وسط دهشة الجميع ، وتحول مصعب بن عمير وسلمان الفارسى -برضا نفس- من الترف والرفاهية إلى حياة الزهد والمشقة، وحديثا .. يدهشنا كل يوم توبة فنانة من هنا أو فنان من هناك، وهم آخر من يتصورهم الناس ملتزمين.

والسر في ذلك..أن الإيمان طاقة ربانية ليس لقوتها حدود.. قادرة على تغيير النفوس وفك كل شفراتها لتحولها من الشيء إلى نقيضه.. ولو وعى كل منا هذا الدرس، لاستطاع بالإيمان، أن يغير ما بداخله أيا كانت صعوبته، كل ما عليه أن يبدأ في استخدام طاقة إيمانية ربانية جبارة لديه، اسمها: طاقة الإيمان.

**٦- الصادق في إيمانه لا يعدم الحيلة ( مصعب ينجح في مغافلة حراسه والهروب منهم للهجرة إلى الحبشة ).**

إذا كان الملتزم صادقا في التزامه، غير متردد فيه، مقتنع بطريقه مصر على استكماله؛ فلن يعدم الحيلة للتغلب على ما يواجهه من صعوبات، والمؤمن الصادق لا يظهر صدق إيمانه إلا في المواقف الصعبة، وما يحدث للملتزم من مشاكل، ما هى إلا اختبارات يرسلها الله له ليختبر إيمانه وصلابته وإرادته، فإذا وجد منه صدقا وعزيمة أعانه، وهداه إلى التفكير السليم، وثبته وزاده إيمانا ورفعه عنده درجات ودرجات. وإن خارت إرادته واستسلم بسهولة.. فلن يرى بقية الطريق.. بل سيبدأ رحلة التراجع.. خطوة خطوة.

**٧- الالتزام قرين التضحية (مصعب يظهر عليه الفقر الشديد بعد إسلامه ).**

لا التزام بدون تضحية وجهاد نفس.. والذي يظن غير ذلك مخطئ في فهم دينه، وإلا.. فما هوالدليل الذي ستبرهن به على حبك لله وللرسول ﷺ والتزامك بالإسلام إن لم تترك شيئا عزيزا عليك؟

لقد ضحى مصعب براحته وجاهه وعيشته اليسيرة المرفهة، ليأكل أرخص الأطعمة ويرتدي ثيابا بسيطة ويتحمل مشقة السفر والحر من أجل دينه وفى سبيل الله.. والطالب أوالشاب قد يضحى بماله أو وقته أو راحة جسده، أو هدوئه النفسى أو سكينته في أسرته أو مرحه وسط أصدقائه في سبيل الله، ومن أجل رضاه والفوز بنعيمه وجنته.

**٨- الخلاف في وجهات النظر بين الآباء والأبناء، لا يخدش المعاملة الكريمة لهما ( مصعب يناقش أمه ملتزما بآداب الحوار معها، ولا يخفي حبه لها ورغبته في هدايتها ).**

الخلاف في الرأي بين الآباء والأبناء وارد، وغالبا ما يشتد في مرحلة المراهقة ونادرا ما يصل طرف من الطرفين إلى إقناع الآخر بوجهة نظره، ولذلك فقد علمنا الإسلام أن للتعامل مع الوالدين خصوصية وخطوطا حمراء لا يمكن تعديها مهما وصلت درجة الخلاف بين الأبناء والآباء، وقصة مصعب علمتنا أن الخلاف وصل بينه وبين أمه إلى أقصى مدى يمكن تصوره، إنه خلاف على دين وعقيدة ومصير وجنة ونار، ومع ذلك كان مصعب يحدث أمه بأدب ورفق ورحمة ومحبة رغم قسوتها الشديدة عليه، وإيذائه بحبسه حتى ينصرف عن دينه، ومع الأم بالتحديد.. لابد أن يراعى الابن رقة مشاعرها وشدة عاطفتها وحبها لابنها وخوفها عليه، قبل أن يهم بكلمة تضايقها أو تصرف منفعل يغضبها.

**٩- الذي يقنع الناس بالالتزام الجوهر لا المظهر ( مصعب ينجح في إقناع أهل المدينة بالإسلام نتيجة لسلوكه الملتزم بأخلاقيات الإسلام وشخصيته المتكاملة ).**

نجح مصعب بن عمير في أن يقنع أهل المدينة بالإسلام، وما كان مصعب ليصل إلى هذا الهدف الذي سافر من أجله بأمر الرسول ﷺ، إلا إذا كان أهل المدينة قد وجدوا «مصعبا» رجلا حسن الخلق، باسم الوجه، قوي الحجة دون إذلال لمن يناقشه، لطيفا وقورا نظيفا، يفعل ما يقوله، ولا يقول مالا يفعله.. لقد اقتنع أهل المدينة بالإسلام عندما وجدوا نموذجا عمليا للإسلام أمامهم بأخلاقه وتعاليمه، وللأسف.. يخطئ بعض الشباب الملتزم في فهمه للالتزام على أنه التزام بالشكل بالدرجة الأولى ( نحن لا نتحدث هنا عن شرعية الزي والشكل ) ، كإطلاق لحية ولبس عمامة أو جلباب أبيض قصير، في الوقت الذي يتهاون فيه مع حسن معاملته مع الآخرين، والتفاعل مع الناس بصورة سمحة حكيمة ومقنعة، كما يظن آخرون أن غاية مراد الإسلام منه هو أن يتعبد، فيصبح كل هدفه أن يجتهد في الصلاة والقيام وقراءة القرآن، ويكتفى بذلك.. وقد خفى عليه أن الله إنما جعل العبادة من أجل تغيير النفس وعلاج أمراضها وفسادها، من أجل إصلاح المجتمع، وتغييره إلى الأفضل.

إننا لا نعترض مطلقا على الملابس المحببة للملتزمين أوالاجتهاد في العبادة، ولكننا نشدد على فهم الغاية والهدف الذي يريده الإسلام منا.. إن الإسلام يريد العمل بما جاء فيه..هذه رغبة الله.. وهذه هي الوسيلة التي بها سيمنحنا حبه ورضاه.. والفوز بجنته.

**١٠- البطولة أن تثبت عند الشدائد، وتعطى الأمل لمن حولك عندما يواجههم الإحباط، ويطل عليهم شبح اليأس ( مصعب بن عمير يدافع عن الرسول ﷺ بكل قوته، ويحاول رفع الروح المعنوية للمسلمين، بعد تفرق المسلمين وانهيارهم بعد خطأ الرماة في أحد ).**

بعد خطأ الرماة ومخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، انكشف المسلمون، وبدؤوا يتعرضون للهزيمة، وانهارت الحالة المعنوية للمسلمين بعدما وجدوا الهجوم الشرس عليهم من قبل المشركين، وربما كان قد أصاب «مصعبا» جزء من هذا الانهيار النفسي، فهو بشر، ولكنه لم يستسلم له، بل رأى أن أول

خطوة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هى رفع الروح المعنوية للمسلمين خصوصا أنه هوالذي يحمل الراية ، محاولا أن يعيد ولو جزءا بسيطا من التوازن العسكري في المعركة، في نفس الوقت الذي أخذ فيه موقعه بعدها في الدفاع عن الرسول ﷺ، وكان لمقتله أثر كبير؛ لكونه حامل الراية، ولقرب الشبه بينه وبين الرسول ﷺ في تخفيف الكثير من هجمات المشركين ضد النبي ﷺ بعد إشاعة مقتله على يد ابن قمئة.

وكثيرا ما يتعرض الشخص لصدمات كبرى تهزمه وتهزم من حوله، فنجدهم قد انهزمت نفوسهم، استقبلوا الهزيمة بصدر رحب وقلب مفتوح، واستسلموا لليأس دون مقاومة، فيصبح العدد -مهما كثر- صفرا على اليسار، ليس له قيمة أو وزن، وعندما يظهر من ينهض ويقاوم الإحباط ليشد من أزر نفسه أولا، ثم يشجع أصدقاءه بعدها، يكون بطلا بحق.

إن من يحيى الأمل في النفوس، ويعيد الحياة لأناس ماتوا من سهام اليأس والإحباط في حياتهم؛ لجدير أن يعد من الأبطال.

* * *